جوانب مضيئة من الآداب السامية

فؤاد يوسف قزانجي

معنى السامية يشمل اقواما عديدة عاشت في الهلال الخصيب والجزيرة العربية. وهذه الأقوام هم الأكديون والعموريون أو البابليون والآشوريون والكنعانيون والعبريون والآراميون والحبشيون والعرب. والكاتب لا يرى ان الحبشيين من مجموعة الأقوام السامية على الرغم من ان لغتهم فيها بعض الصفات المتشابهة حسب ادعاء صاحب النظرية السامية "شلوتزر" الألماني. واننا نجد في الاقوام التي عاشت في وادي النيل قديما علاقة وثيقة بالأقوام السامية الى درجة انها بعد حين تشابهت في صفاتها الاجتماعية وعلاقاتها الانسانية. اما الأحباش فقد اغفل كثير من المؤرخين والكتاب العرب دراستهم ودراسة تاريخهم، كما ان الصلة بيننا وبينهم ضعيفة مع الأسف.

كان تدوين الكتابة والأدب يجري بالخط الأكدي منذ الألف الثاني قبل الميلاد في الهلال الخصيب وايران "بلاد عيلام" وظل الأمر كذلك حتى القرن الرابع قبل الميلاد حينما اجتاحت جيوش اليونان الشرق بقيادة الاسكندر الأكبر. وكانت الكتابة تجري حتى ذلك الحين على الرقم الطينية في بابل وآشور ونينوى وماري وكوزانا وايبلا واوكاريت وكركميش وغيرها. إلا ان انتشار اللغة الآرامية منذ القرن السابع او السادس قبل الميلاد جعل منها لغة الدبلوماسية والتجارة حتى القرن الأول الميلادي الى جانب اللغة اليونانية. أما الهيروغليفية لغة وادي النيل فقد كتبت على ورق البردي في معظمها ما عدا تلك التي خطت على جدران القبور والاهرامات والمنحوتات التي تشكل معظم معرفتنا للحياة والأدب المصري القديم. اما الفينيقيون الذين كانوا رجال البحر فقد جعلوا البحر الأبيض المتوسط بحيرة فينيقية في التجارة والمواصلات وابتكروا ابجدية ولغة خاصة بهم منذ بروز حضارتهم في القرن العاشر قبل الميلاد، ولا نعرف كثيرا عن أدبهم وملاحمهم فيما عدا ما كتب عن قائدهم الفذ هانيبال وعن صراعهم الدامي مع الرومان.

نما الأدب السامي عندما استقرت الأقوام السامية المهاجرة في مدن متحضرة تساعد على الاستقرار والاهتمام بالأدب والفن. وكان الشعر المنثور الذي يحفظ عادة لغة الأدب الفنية التي يعبر عنها الشاعر والناثر والقاص والمؤرخ والحكيم عن مشاعره او حين يكتب عن حياته وتاريخه او يروي عن احلامه وآماله او يصور خوفه من الظلام والعفاريت والجن والوحوش التي يتصورها موجودة في الظلام وفي الأماكن الجبلية والنائية، فكانت الأساطير والخرافات أي الحقائق ممزوجة بقوى الآلهة في الطبيعة ووحشية الجن والعفاريت التي تظهر له على شكل حيوانات غريبة ومخيفة.

وبدءا من البابليين الذين استوعبوا الحضارتين السومرية والأكدية، فإن الشعراء والأدباء البابليين اعادوا كتابة بقايا الاداب القديمة وجددوها برؤياهم وما تميزوا به كساميين بالخيال الخصب فنظموا القصائد الطوال القصصية التي اصبحت ملاحم رائعة مثل ملحمة كلكامش واتراحاسس واينوما– ايليش وغيرها وانتقل الأدب غربا عند الأقوام السامية الاخرى فانتعش في ثقافة ماري وكوزانا وايبلا واوكاريت وصور وصيدا وارفاد واور– سالم. وتميز الادب السامي بالخيال الخصب والعناية بالآلهة التي كانت تعبد في جميع المراكز والمدن الحضارية على طول الهلال الخصيب وهناك قصائد جميلة وقصص تروى عن "اينانا وعشتار وعشتروت واسترت" وكذلك عن "ادد وحدد" وعن "ايل وبعل وايا" التي كانت آلهة سامية مشتركة.

كان الشاعر السامي في بلاد الرافدين وبلاد كنعان وفي الممالك الآرامية قد نضحت ثقافته وعقليته واتسعت مداركه في المعرفة بفضل التقدم النسبي في الحضارات السامية وكذلك في حضارة وادي النيل. وانتج الشعراء والقصاصون والحكماء ادبا جميلا وخاصة الشعر الملحمي. وهكذا فان عشرات الملاحم الرائعة والأساطير خضعت في حبكتها وتفاصيل مغامراتها وعناصرها الدرامية الى رؤيا الحياة وسبل العيش وعكست العقلية وطبيعة تعامل الانسان مع الوجود والآلهة والعفاريت يضاف اليها أماني وآمال ذلك الانسان في الخلود او العيش طويلا لذلك ظلوا الى قرون عدة يرسمون ابطالهم وملوكهم وحكمائهم كانهم شبه خالدين او ان اعمارهم بلغت الخمسماية أو الالف سنة وربما اكثر من ذلك في حين ان هذه السنوات الطوال العمرية ليست صحيحة لا تاريخيا ولا آثاريا وبعيدة عن الحقيقة.

كان الأدباء في معظمهم كتابا مجيدين في المعبد او البلاط او يعملون كمستشارين ورسل. وكانت الطقوس السنوية في الاعياد مثل عيد اكيتو في رأس السنة السامية التي تبدأ في شهر نيسانو، وتمثل الخضرة والربيع من جهة والخصب والتكاثر واستمرار الحياة من جانب آخر فكانت طقوسها عديدة ابرزها الزواج المقدس بين الملك والكاهنة الرئيسة في المعبد. وكانت هذه الطقوس الجميلة التي تمتد اياما عدة "احيانا احد عشر يوما" تثير كوامن الشاعر واحاسيسه فينطق شعرا رقيقا جميلا كله حب وعشق ووله او يمتدح آلهته التي اعطته الرفاهية او ان يلهج بحسب ارضه وزرعه واناسه.

كشف الاديب في الحضارات السامية، انه لا يعيش في الخيال والاحلام بل يحاول الوصول الى الحقيقة، ما يجعل تطور الادب الأسطوري السامي يعتمد على استدلال فكري وعلى نوع من المنطق البسيط، ففي ملحمة كلكامش مثلا عندما مرض ومات صديقه الحميم انكيدو، شعر كلكامش بأن الحياة كم هي فانية، وان كل ما حوله من مجد وسؤدد مآله الزوال، وكان تفكيره قد هداه اخيرا بالبحث عن الخلود، وهي فكرة رائعة تروق للانسان في كل زمان ومكان. واذا كان الانسان فشل في الحصول على نبتة العمر الطويل او العودة الى الشباب في الأدب السامي، فهذا يعني ان هذا الأدب لم يعدم البحث عن قيم وآمال جديدة في الحياة القصيرة التي يعيشها الانسان. وان لم يكن هنالك ملاحم ادبية كبيرة في حضارة وادي النيل كما هو الحال في الملاحم الرافدينية، الا ان التشابه في المعالجة تكاد تكون موجودة. ففي أسطورة فيضان النيل في عهد الفرعون "اوزوركون الثالث" في القرن الثامن قبل الميلاد تذكرنا بنقطة البداية في قصة الخليقة السومرية أو البابلية. ونجد ان "تون" في الأسطورة المصرية قد عمّ الأرض كلها ودق أبواب "السيلين الجبليين" حتى كان الفجر حينما تكون وادي النيل ثم حصل ان الناس خلقوا بعد ذلك. ولم تتحدث الميثولوجيا المصرية عن العدم، هل هو الماء؟، كما هو الحال في اساطير بين النهرين ام ان الاله خلق كل شيء، وهو الأقرب الى الجواب، اذ ان الاله الأول في مصر كان ابا لجميع الالهة وهو الأقدم ولكن ابنه "ريح" كان اعظم منه!.

وكان ادب الحكمة في وادي النيل بنفس مستوى ادب الحكمة في الأدب الرافديني او الأوكاريتي، اذ كان قد وصل الى مستوى عال اذا تمثلنا بكتابات الحكيم المصري "افيموبي" التي كونت جزءا من التقاليد الاخلاقية والاجتماعية التي ينظر اليها الانسان في مصر القديمة نحو المثل العليا بحثا عن زمان تسود فيه العدالة.

وكانت دويلات المدن في بلاد كنعان "سوريا" تشع ثقافة وادبا مثل اوكاريت وايبلا وماري وغيرها وقد انتجت مملكة اوكاريت ملاحم وقصص وأساطير عديدة ابرزها: ١. ملحمة اللآلئ، ٢. ملحمة البعل وعناة، ٣. اسطورة اقهات بن دانيال، ٤. قصيدة "الرفائيم" لعلها قصيدة ملحقة بأسطورة اقهات، ٥. قصيدة مولد السحر والغسق أو قصيدة الالهة الجميلة والوسيمة، وهي على شكل تمثيلية لها علاقة بفترة نضوج العنب.

ان ظهور الأدب التمثيلي في اوكاريت هو ظاهرة ادبية متميزة تسبق الادب التمثيلي في اليونان الذي ظهر في القرن السابع او السادس قبل الميلاد بينما ازدهر الادب الاوكاريتي بين القرن السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد. اما ملحمة اللآلىء، فاننا نجد "بعل" يتصارع مع اله البحر ويسمى "ملكا" الي اليم. وبعل أو السيد هو بطل الملحمة التي تجري حول مسائل الزراعة والخصب والنماء.

كان الشاعر في الأدب السامي ينشد المدائح للأبطال من الملوك او الالهة في بلاد كنعان او في بلاد ما بين النهرين. ولم ينس معاني الحكمة والعبرة في نهاية الملحمة او في رموزها الدلالية. وعموما فان الصيغ المجازية التي تميزت بها تلك الملاحم كالصور والرموز والاستعارات والكناية والتورية كانت المفاصل الجوهرية لأبنية الملاحم الأسطورية. وهكذا نجمت هذه الملاحم في افقها الانساني والعالمي جمالا وتقنية وعبرة ولم ينس الأديب في الهلال الخصيب في بعض نتاجاته ان يصارع الشر متمثلا في الوحوش والعفاريت وان ينتصر عليها.

تواصل إنساني عجيب!!

أميرة أبو الحسن

أنت إنسان طيب، لطيف ومهذب، هكذا ترى نفسك وهكذا يراك الآخرون. لا تعلم إن كنت قد ورثت هذه الصفات وراثة أم أنها غرست فيك قسراً خلال عملية غسل دماغك بحجة تربيتك لتتعلم أن الهدف الأسمى في حياتك كلها هو محبة الغير لك.

ويبدأ سعيك وجهدك المتواصل لتحقيق هدفك المنشود وتنقضي سنوات طويلة من عمرك القصير أصلاً قبل أن تأتي لحظة تشبه الصفعة – وقد لا تأتي أبدا– تقف فيها مع نفسك وتتساءل "هل يستحق ذلك الهدف كل هذا الوقت والجهد؟!" هذا مع العلم بأن قصة "إرضاء الناس غاية لا تدرك" كانت ضمن منهاج أحد سنوات تعليمك الابتدائي ربما، وربما لأنها كانت ضمن منهاج مدرسي في مدارس تحمل شعار العصا لمن عصا وأن المنهاج سيجد طريقه إلى دماغك بالقوة والإكراه، فقد ذهب معنى القصة كغيرها في سبيله بعد الامتحان النهائي في آخر السنة الدراسية.

بعد هذه اللحظة التي تشبه الصفعة، ستدخل في عملية اختيار وغربلة لانتقاء مجموعة أصغر تسدد لها ما عليك من ديون المحبة والود والتواصل. وعليك أن تكون صلباً لكي تتحمل نتائج فعلك. فسيبدأ الكثيرون بتوجيه الملاحظات العاتبة إليك بحجة أن "العتب على قد المحبة"، هذا قبل أن ينتقلوا إلى مرحلة اتهامك بالغرور والتخلي، ثم إلى مرحلة المقاطعة التامة.

هذا ما يحدث أحياناً في حياة الإنسان. أما إذا كان هذا الإنسان مبتليا بنعمة الكتابة، فمعاناته ستكون أضعافاً مضاعفة. فللكاتب طبع خاص ومزاج معين، يمليان عليه سبل التحكم في وقته وطاقته. تجده حيناً محبا ولطيفا وفي غاية التهذيب فيرد على رسائل معجبيه أو زملائه في مهنته بكل انضباط، بل قد يبادر هو إلى مراسلة كتاب آخرين تصادف أن أعجبته كتاباتهم. وفي حين آخر تجده لا يرغب سوى في أن يتركه الجميع في حاله لينفرد بها في عزلة قد لا يفهم هو نفسه أسبابها.

وتبدأ الخسائر البشرية في التكاثر. أقرباء نسي في عزلته أن يؤدي معهم واجبا أو أصدقاء تأخر في الرد على رسائلهم أو اتصالهم الهاتفي. الكل عاتب وغاضب لأن حقه عليك من الاهتمام والوقت لم يصله. وما من أحد يحاول ولو محاولة صغيرة أن يتفهم حالتك سواء كانت ظرفا خاصا تمر به ولا ترغب في الحديث عنه لأنه خاص بك، أو كانت مجرد عزلة فرضتها عليك شؤون الكتابة.

ويبدأ شعورك بالذنب والتقصير بالتزايد إلى أن تكتشف ذات لحظة أخرى تشبه صفعة أخرى أنه بدأ يشل أطرافك في حيرة بين فعل الصواب الذي ينتظره منك الغير وبين فعل ما ترغب حقا في القيام بفعله. فأنت في النهاية كائن اجتماعي يحتاج إلى وجود الآخرين في حياته شئت أم أبيت. لكنك ستجد نفسك بين خيارين كلاهما صعب؛ الغير؟ أو الأنا؟ وتبدأ هنا في كيل شروط المعادلة التي لا يتحقق أحد طرفيها إلا على حساب الآخر. فأنت خاسر في الحالتين.

في الغالب، ستختار أناك، والبعض القليل الذي يشبهك فيتفهم طبعك ومزاجك، وستخسر كل من يظن أنه صديقك الوحيد فيزعجه أن تتأخر في الرد على رسالته أو على اتصاله الهاتفي أو دقيقة واحدة في الرد عليه في حديث مسنجري. وستخسر كل من يرسل إليك دعوة لإضافتك إلى مسنجره الكريم من غير أن يرسل إليك رسالة يشرح لك فيها سببا لرغبته في التواصل المسنجري معك أو يستأذنك فيها على الأقل، أو من يباشرك بحديث صوتي على المسنجر من غير استئذان غير آخذ في الاعتبار مدى استعدادك النفسي أو الظرفي. وكل من يتصل بك في أوقات غريبة – بين الثانية والخامسة فجرا– وكأنه يفترض بأنك مثله سهران تعد النجوم.

هذا بالإضافة إلى كل من يجد نفسه فريسة لوهم أنه واقع في هواك على الرغم من تأكيدك الشديد له بأنك لست في حالة خواء عاطفي تؤهلك لمبادلته مشاعره بالمثل. وكل من يظن أنك على درجة عالية من الثقافة والتحرر وخاصة التحرر الجسدي (ولا أدري لم يرتبط هذان الأمران بشدة في ذهن البعض) بحيث أنك جاهز لممارسة هذا التحرر معه حال تلميحه لك برغباته، وقد يتفاجأ كثيراً ويشعر بدهشة كبيرة لرفضك!.

الخسارة الأكبر، أنك لن تعود أنت نفسك ذلك الإنسان الطيب اللطيف والمهذب، ستبدأ في الشك وإساءة الظن في الغير ولن تظن الخير فيهم حتى يثبت لك العكس. وستكتسب قسوة ووقاحة في التعامل لأنك ستجد فيهما الطريقة الوحيدة للدفاع عن نفسك في غابة شاسعة واسعة لا حدود لها من البشر.

مظاهر لا طائل منها!!

بدران امرايا

في حياتنا الاجتماعية هناك محطات ومظاهر اجتماعية محبذة ألقت بظلالها علينا، منها ما كانت تراثية بسيطة المعالم والممارسات ووفق طقوس محددة لايمل الانسان من ممارستها كالأعياد والمناسبات الدينية او القومية العديدة او أعياد الميلاد او حفلات الخطوبة او الزواج اومراسيم الموتى من ثلاثية او سباعية او سنوية.. هذه المناسبات بصورة عامة لها وقع كبير على مجريات الحياة الاجتماعية فتسبب ارباكا لدى الانسان وتجعله اسيرا بقيودها واغلالها المقيتة والمملة.

وغدت مراسيم التعازي تظاهي في طقوسها مراسيم حفلات الزواج وشتان بين الإثنين من حيث صداها في نفس الإنسان، وهنا سوف اتناول احدى اهم هذه المناسبات "الزواج" والتي كانت بسيطة بممارساتها جملية بمظاهرها ومراسيمها وذات قدسية كبيرة لدى الانسان منذ قدم التاريخ ولحد الان.. حيث كان اجدادنا البابليون الآشوريون يمارسونها بطرق بسيطة وفي نفس الوقت معقدة المضامين، حيث كانت مراسيم العقد تتم بعد ان يرضيا كلا الطرفين الشاب والشابة ببعضهما ويتفهمان سر هذه العملية المقدسة وما يتمخض ويترتب عليها من التزامات وواجبات اخلاقية وانسانية من كل طرف تجاه الطرف الاخر، لكون هذا الرابط ومنذ القدم من اشد الروابط واقدسها وما يترتب عليه من انشاء نواة لخلية الأسرة والتي هي الخلية الأولى في بناء حضارة الإنسان وفي تكوين البيت والعشيرة والقوم ومن ثم القرى والمدن والكيان السياسي والاجتماعي وتنطلق من مفهوم الاسرة كقاعدة اساسية نحو بناء الحضارة ورفع شانها الانساني والاجتماعي والاخلاقي.

ومراسيم الزواج كانت تتم بحضور العروسين الى الهيكل ويحضر احد الكهنة وشاهدان اثنان او اكثر من وجهاء القوم، بالاضافة الى الاهل والاقارب.. فيقرأ الكاهن بعض التراتيل التي تمجد هذه الخطوة المهمة ويبين واجبات الزوجين تجاه بعضهما وانجاب الاطفال واستدامة النسل البشري ومباركة الآلهة لهذه الخطوة وماتحمل من شؤون وشجون وسعادة وتعاسة، وليس شرطا ان يتم الزواج داخل الهيكل او البيت الإلهي، بل في اماكن مختلفة بشرط حضور شاهدين يوقعان على ذلك العقد الذي تم بين الزوجين.

وخلال الزمن تطورت هذه المراسيم.. وبعد ظهور الديانات السماوية والتي لم تلغ جوهر تلك المراسيم بل اضفت عليها بعض التعقيدات التي زادت من قدسيتها ومكانتها السامية والرفيعة عند الانسان وما يترتب عليها من اوجه قانونية ودينية واجتماعية، حيث ان الجوهر يكمن في سر الارتباط نفسه وليس بمظاهر سطحية براقة وفضفاضة سرعان ما تتلاشى عن الذكر، بل ما تحمله من سعادة غامرة كونه احد اهم مراحل حياة الانسان وما يعقبه من تغيرات جذرية في حياة كلا الطرفين.. والسيد المسيح جل شأنه قدس هذا الرباط بقيامه بأول إعجوبة له داخل احدى حفلات الزواج بقانا.

واللافت للنظر أن مراسيم واجتهادات شخصية مزاجية فنية طرأت على طقوس الزواج، حيث اجتهدت خطوات كيفية معقدة ومكلفة ومسرفة للمال والتعب.. ولا تقع هذه الكلفة على كاهل مبتكريها ومهندسيها الميسورين بل تقع على عاتق واعناق من هم في الطبقات الوسطى والدنيا من الحالة المعيشية في المجتمع.

وان تلك المراسيم الزائفة والزائدة غدت وكأنها ضمن الطقوس المقدسة للزواج ولا يجد الفقير منفذا للحياد عنها بل يقع في شباكها الضيقة الخانقة، لأنه سيجد نفسه اقل شأنا ومكانة في المجتمع لو لم يقم بجميع تلك الطقوس الاجتهادية التنافسية والتي لاتهدف الا الى الشهرة والبذخ في المال والوقت. وجولات تنافسية غير شريفة ومتكافئة بين هذا وذاك وكأنها سباق بين المترفين دون أي تفكير بأن الطبقات الدنيا من المجتمع سوف تقع بين حوافر خيولهم.. وبالتالي تكون مرغمة على اعادة سيناريو تلك العادات السيئة وان لم تكن مقتنعة بجوهرها، بل خوفا وتحسبا من كلام الشارع والقيل والقال حتى وان اضطرت الى تجاوز مستواها الاقتصادي واللجوء الى ظاهرة الاستدانة فقط لامرار تلك الفترة الحاسمة والتي توقع بكاهلها وتداعياتها حصرا على كاهل العريسين بعد الزواج.. فبدلا من ان يتمتعا بمتعة شهر العسل يكونان منهمكين في ايفاء الديون التي ترتبت على اعناقهما وكانه حبل المشنقة يلتف حول رقبتهما.

وقد اضطر الكثير من العرسان الى انتزاع الصيغ الذهبية من عنق العروسة لدفعها لايفاء الديون التي غرقوا في مستنقعها وكم من المشاكل حدثت وما زالت تحدث في هذا الصدد ووصلت الى حالات الفرقة بين العروسين.

الى جانب مسالة مبلغ المهر الذي هو بين المد والجزر وكم من الشباب والشابات عزفوا عن فكرة الزواج من وراء هذه المظاهر الشكلية الفارغة من الجوهر.. وعلى الاسرة اولا ومؤسساتنا الاجتماعية ذات الشأن والكنيسة تحديدا وعلى وجه الخصوص ان لا تتهاون في هذا الصدد، بل ان تسعى الى التوعية بكل الطرق والوسائل الممكنة للحد والاقلال من هذه المظاهر السيئة والشكلية واتخاذ قرارات حاسمة وفاصلة بها.. وقد وصل الامر الى وصف الحفلات التي لاتقدم ما لذ وطاب من المشروب والمأكل لمدعوينها انها حفلات تعاز وماتم، وكأن متعة الزواج تقترن بالمشروب والمأكل فقط لا غيره.. الى جانب اشتراط العروسة او اهلها على تحديد مكان احياء الحفل وكذلك اختيار الفرقة الغنائية ومكان قضاء شهر العسل وتسمية القريبين وفستان العرس وايضا مسالة الانجاب وتأجيلها واثاث البيت وغيرها من القلائل دون تكلفة النفس بالتفكير بسر الزواج وقدسيته وتنشئة نواة جديدة للاسرة التي باركها الرب.

نرجو ان تقوم المؤسسات ذات العلاقة بواجبها الصميمي تجاه ازالة هذه القشور الواهية والتركيز على الجوهر والهدف السامي وراء هذه العملية والمرحلة الحياتية الفاصلة من مراحل حياة الانسان.

الحرية أولا.. في جدليّة الدولة والإبداع*

حاتم النقاطي

يقول جان جاك روسو "إذا منح كل واحد نفسه للمجموعة كلها فإنه لم يمنح نفسه لأحد ولما لم يكن ثمة شريك لا يمنحنا نفس الحقوق التي وهبناه إياها غنمنا ما يساوي عزمنا كله مزيدا من القوة للحفاظ على ما هو حاصل لدينا. وهكذا فإنّ العقد الاجتماعي إذا خلص مما ينافي ماهيته ألفيناه مختصرا في العبارات التالية: أن يضع كل واحد منا شخصه وكل ما له من قوة تحت تصرّف المجموعة وأن يخضع لمشيئة الإرادة العامة وأن يلتحم بكل عضو من أعضاء المجموعة باعتباره جزءا لا يتجزأ منها".

من هذا المنظور، فقد أضحى من النوافل الحديث عن ضرورة الدولة لتشكل النمو الثقافي والحضاري للأفراد إذ أنّ كل التصوّرات السياسية منذ "أرسطو" إلى المعاصرة لم تستطع أن تنفي أهمية هذا الجهاز ودوره في تنمية الوعي وتأثيره في توجيه اختيارات الأفراد مهما اختلفت مواقفهم السياسية ومهما تنوّعت تجاربهم الجمالية ذلك أنه لا يمكن الحديث عن تطور فني في دولة تدفع الثقافيّ وترعى مؤسساته الجانب الإبداعي في الأفراد. ولنا في الثورة الفرنسية نموذج يمكن أن نفهم به حرص هذه "الدولة البورجوازية" على رعاية الفن والمنتجات الثقافية من شعر ونثر ورسوم وموسيقى.

لقد اعتبرت الدولة جملة من المؤسسات والقوانين والهياكل التي أبدعها الإنسان لضرورة التواصل ضمن الائتلاف الجماعي سعيا إلى خير الجماعة فسعت هذه المؤسسة الكبرى إلى رعاية مصالح الأفراد ورعاية منطلقاتهم الاعتقادية والروحية وهو ما كشفته لنا الدولة اليونانية تلك المدينة التي كانت تحتفي بالفنون "الكلاسيكية" وتجسدها في "نحت" يسلب ألباب الناظرين إليه.

إنها المدينة الدولة كما عاشها اليونان وكما حاول أرسطو أن يجسدها في كتاباته مشروع إسعاد الإنسان في فضاء عملي يكون "الخير" نموذجه وغايته. لقد استطاعت الميتولوجيا الإغريقية ومن ورائها الفن الإغريقي أن تعبّر عن عمق هذا الحس الفني الذي تكشفه لنا مخلفات الإغريق من ملاحم ونحت وآثار فكرية وفلسفية متنوعة ما كان لها أن تحضر لولا تشجيع حكام المدن على سياسة الحوار فكانت "الأغورا" الساحة حيث يجتمع المتحاورون فتكون مقارعة الحجة بالحجة كذلك كان الأمر وكذلك كانت الدولة المدينة كما عاشها اليونان وكما رسمها عقل الفلاسفة باب سلطة الدولة الفكرة على الوجود السياسي والأخلاقي فكان القول العلن فتطور الإبداع وتعالت أصواته في فضاءات تحتفل بإنسانه.

ولم يكن باب احتفاء السياسي بالإبداع مختفيا بعد ذاك العصر اليوناني الرائع بل جسدت الثورة البورجوازية مع مفكري فلاسفة الأنوار "روسو – فولتار – مونتسكيو" خير إشعاع لصورة ثقافة انسانوية رائعة تحتفي بالاختلاف وتجسد حرية القول والتعبير نموذجا صادقا لحياة فاضلة يتمتع بها الفنانون فيفرض منطق الحوار كباب ضروري لتطوير الوجود الثقافي الواعي مما يؤسس لحياة مدنية متطورة قوامها احترام الدولة للفرد ولحق الاختلاف. فهل نحن أمام باب يتصالح فيه الإنسان مع الدولة ليهمّش كل حضور إنساني يفعل في "الآخر" لتكون جدلية الدولة والإبداع تهميشا للفرد وقتلا لخصوصية الإبداع الذاتي كحرية تتجاوز كل قيود سلطوية فوقية؟.

إن جدلية الدولة والإبداع لا تعني البتة تغييب الفردية بقدر ما هي اعتراف بضرورة دعم الدولة لتقدم الفكر نظرا إلى صلاحيتها المهولة داخل الوجود الإنساني. ولقد سبق لماركس في كتابه "مقدمة عامة لنقد الاقتصاد السياسي" أن عبّر عن إمكانيّة تجاوز الجميل لعصره مما يجعله خصوصية يصعب حصرها في موضوعية مقننة ". إن الفن الإغريقي والملحمة يحدثان فينا إلى حد الآن متعة جمالية".

قد يبدو هنا القول غريبا في ظاهره لاسيما وأنّ المتعارف عن ماركس قوله باجتماعية الوعي الإنساني واقتصاديته وتاريخيته أي أنّ الوعي خاضع إلى زمان ومكان موضوعيين لكن باطن هذا القول لا يلغي أبدا جدلية الوعي والعصر بقدر ما يؤكد خصوصية هذا الجميل باعتباره قدرة فردية على التخيل وعلى معاناة الحالة الفنية خارج كل ضوابط زمكانية صارمة. فهل من غاية يرجوها "الفن" من الدولة؟ وهل من الحكمة أن نبحث للفن عن خصوصية زمن سيطرة "الزمكان" على كل خيال؟.

إن وعينا الثقافي وجب اليوم أن يؤكد لنفسه أكثر من الأمس دور الدولة في توجيه الفكر وتوجيه الخطاب الثقافي لذلك وجب أبدا علينا أن ننام مستيقظين. إذ في خطاب "السلطة" ما يجعلنا في عصر العولمة نحسب لهذه "السلطة السياسية" مليون حساب لأنها راعية كل شيء. إنها على حد عبارة "ماركوز" "دولة أخطبوطية" تسعى إلى مزيد إحكام قبضتها على الإنسان فتكون الحرية قائمة على محاولتنا أبدا نقد مشروعها المتعاظم في سعيه لاستبدال الجميل بالنافع، والخير بالمصلحة.

أما "الخصوصية" فإنها سوف تكون محاولة نقدية تتوجه إلى ذاك الفني الذي يسعى هذا الواقع الاقتصادي والسياسي المعاصر لطمسه من خلال تهميشه لدور الذات والخيال واللغة واستبدالها بمقاييس عامة يغيب فيها الفعل والتغيّر والتأثير وهو ما تكشفه ثقافة الإعلامية وصرامة تطبيقات برمجياتها. فهل نحن عندئذ أمام تغييب لكل حقيقة تجمع بين هذا الإبداع و بين تلك الدولة؟ أم هي ضرورة هذا العصر – ولا غيره – تقتضي منا مراجعة علاقة الدولة بالإبداع؟.

إنها الجدلية وهي تحكم الوجود فتسعى لبسط حضورها على كل الموجودات فلم لا نفكر مجددا في ثنائية هذه العلاقة بين هذه الدولة و بين ذاك الإبداع؟ ولم لا نفكر مجددا في تلك الخصوصية التي كانت ولازالت روح كل عمل فني يتوق إلى تجاوز زمانه ومكانه في لغة وخيال وذات ترتفع عاليا وتحلق أبعد من كل طير نراه؟.

يقول سبينوزا "إن غاية الدولة القصوى ليست السيطرة. فلم توجد الدولة لتحكم الإنسان بالخوف ولا لتجعله ملكا لإنسان آخر بل وجدت لتحرّر الفرد من الخوف حتى يعيش في أمن، أي حتى يحفظ حقه الطبيعي في الوجود وفي الفعل... إذن فغاية الدولة في الواقع هي الحرية".

* عن موقع عرب أون لاين